جامعة غرناطة
كلية الآداب والفلسفة
قسم الدراسات السامية

بين الضَّفتيْن :
رحلة منفى ابن الخطيب من خلال كتابهِ "نُفاضة الجراب في عُلالة الاغتراب"

ملخص البحث لنيل درجة الدكتوراه الدولية

إعداد الطالبة

ليلى جريص نافارو

تحت إشراف الدكتورة

ثيليا ديل مورال مولينا

2016

نقدّم في هذا البحث دراسةً لشخصية العلامة الأندلسي، لسان الدين بن الخطيب، من خلال كتابه "نُفاضة الجراب في عُلالة الاغتراب"، مع التركيز على الرحلتين اللتين قام بهما خلال منفاه الأوّل في المغرب المريني، وترجمة النصّيْن إلى اللغة الإسبانية. نَودُّ من هذه الدراسة التعمُّق في تجربة ذي الوزارتين المغربية ضمن سياق العلاقات السياسية والاجتماعية والثقافية بين عُدْوَتَي الغرب الإسلامي، لإدراك إلى أيِّ مدىً حاول ابن الخطيب ردمَ الفجوة بين الضَّفَّتين التي أدت في نهاية المطاف إلى سقوط مملكة غرناطة.

ينقسم بحثُنا هذا إلى ثلاثة أجزاء: في الجزء الأول نعرضُ سياق البحث، ونُعرِّف في الثاني بالمؤلِّف ونتعمّق في "النُفاضة"، وفي الجزء الثالث نورد النصوص المترجمة ونحلِّلُ مضمونَها ثمّ نُنهي البحث بالاستنتاجات العامّة التي توصّلنا إليها، ونتبعها بملحق نُفصِّلُ فيه مضامين الجزُأين الثاني والثالث المعروفين والمُحَقَّقيْن من "نُفاضة الجراب". وقد استخرجنا من النص ثلاثة فهارس، فِهْرِس للأعلام وفهرس للأماكن وآخر للمصطلحات. وسيجد القارئ أيضاً خريطتين، نُمثِّل في الأولى الفِتنة المرينية التي وقعت عام 1361 للميلاد، ونتابع في الأخرى رحلات ابن الخطيب في المغرب منذ بداية منفاه وخروجه من غرناطة في أواخر عام 760 الهجري لغاية عودَتِهِ إليها في منتصف عام 763. وفي نهاية البحث وضعنا أيضاً بعضَ الصور لآثار من المغرب والجزائر لتساعدَ على تصوُّر الحياة في ذلك الوقت في المغرب الإسلامي، بالإضافة إلى قائمة المصادر والأبحاث والمراجع التي اعتمدنا عليها .

سنقوم أولاً بعرض محتوى الأجزاء الثلاثة ثمّ الاستنتاجات:

يتمحور الجزء الأول حول السياق الذي كُتبت فيه "نُفاضة الجراب" في جوانبه الثلاثة: السياسيّ والاجتماعيّ والثقافي. في السياق السياسي نَبسُط الأحداثَ ابتداءً من

الإطار العام حول مضيق جبل طارق للوصول إلى وضع المملكتين الإسلاميتين اللتين تنقَّل بينهما الوزير الأندلسي، المملكة النصرية والمرينية، حيث يعكس كتابه "نُفاضة الجراب" العلاقات بين هاتين الدولتين وتجربتَهُ الشخصية في هذا المجال. وهنا نتطرّق أيضاً إلى أزْمة القرن الرابع عشر الميلادي (الثامن الهجري) والمواجهات بين الدول المسيحية والإسلامية بين ضَفّتَي المضيق للهيمنة عليه، تلك الأزْمة التي ستقود إلى تقوية الجبهة المسيحية وإضعاف الغرب الإسلامي. نَبسُط في هذا القسم أبرز الأحداث التي ينبغي أخذُها بعين الاعتبار لاستيضاح إشكاليّة منتصف القرن: المواجهة بين ملك قَشتالة بيدرو الأول، القاسي، وملك أراغون بيدرو الرابع التي كان لها انعكاسٌ هامٌ على وضع الممالك الإسلامية السياسي ولا سَيَّما في الأندلس والمغرب الأقصى؛ تدخُّل مملكتي بني نصر وبني مرين في سياسة الآخر لدعم استقلال الأندلس من شمال إفريقية من جهة وهيمنة المرينيين على جنوب شِبه جزيرة إيبيريا من جهة أخرى، والذي سيؤدّي إلى اتساع الفجوة بين العُدوتَين؛ سياسة بني مرين المركزية في منتصف القرن التي أنتجت الفتنة والصراع الداخلي على العرش وانقسام الدولة؛ وأخيراً، إحدى علامات ضعف المُلك، ألا وهي تحكُّم الوزراء به.

في السياق الاجتماعي نشير إلى التباينات الأساسية بين المجتمع الأندلسي والمغربي التي تقصّاها ابن الخطيب خلال رحَلاته في المنفى بحثاً عن دعم للإسلام في إيبيريا، إذ كان الطابع القبلي يغلب في المملكة المرينية بينما كان الطابع المدني هو الغالب في الأندلس حيث كانت الروابط القبلية قد ضعُفَت بمرور القرون. وكانت تكمن في العصبيّة القبلية الإفريقية، البربرية في أغلبها، قوةٌ حربية فائقة تحت الحكم المركزي وقدرةٌ مدمرة هائلة عند وَهَن الدولة. وقد أثَّرت هذه العصبية القبلية في تاريخ الغرب الإسلامي منذ أيام

خلافة قرطبة. أمّا في الساحة المرينية فقد كان للقبائل البربرية والعربية، وعلى رأسها قبائل هنتاتة والخلط على التوالي، دورٌ حاسم في استقرار وهيمنة الحكومة المتمرِكزة في مدينة فاس.

وأمّا في السياق الثالث وهو الثقافي، فنعالج الاندماج بين العُدوتين في هذا المجال بعد قرون من التبادل الثقافي منذ ظهور دولة المرابطين وتوحيدِها للغرب الإسلامي تحت شعارٍ واحد. وتتمحور هذه الثقافة المشتركة حول ثلاثة مواضيع رئيسية: العودة إلى المذهب المالكي المتَّسِمِ بالنزعة المحافظة المعتدلة ولا سيّما بعد شُيوع الأفكار الموحِّديّة في الغر ب الإسلامي؛ والاهتمام باللغة العربية كما يتبين من غزارة الانتاج الشعري في هذه الفترة بالمقارنة مع التي سبقتْها مباشرةً، والتحوُّل إلى النثر المقيَّد بالسجع والبيان والبديع الذي يكاد أن يكون بدوره شعراً لاعتمادِهِ على السجع المركَّب ولِكَثْرة الزَّخرفة والتصنُّع؛ وانتشار التصوف بين العامة حتى قويَت شوكتُهُ وأصبح خطراً على الدولة التي ستحاول التحكّمَ به بأساليبَ مختلفة. هذا بالإضافة إلى حركة انتقال العلماء والأدباء بين الضَّفَّتين التي أثارت التبادل الثقافي ومَهَّدت الطريق لتدخُّلِهِم في سياسة الممالك الداخلية والخارجية.

نخصِّصُ الجزءَ الثاني من البحث لدراسة كتاب "نُفاضة الجراب". فنبدأ بالتعريف بالمؤلف داخل سياق عهدِهِ السياسيّ والثقافيّ، دون التوقف عند تفاصيلَ سيرتِهِ لذيوع سيطِهِ. لذا فإننا نركّز على بعض جوانب شخصيته وفكرِهِ وعلى عَلاقاتِهِ مع كبار علماء عصره وخاصةً بما يتعلّق بالفجوة التي ظهرت في أواسط القرن الثامن الهجري. ونتطرَّق بعد ذلك بقَدْر من التعمّق إلى كتابه، فنذكر أجزاءَه المعروفة وتلك التي تُعتقَد ضائعةً ومخطوطاتِهِ المتوفرة وتحقيقاتِهِ، ثم نلخّصُ الأحداثَ التاريخية المذكورةَ فيه لِندرسَ بعد ذلك محتوياتِهِ

المختلفة، وهذه المحتويات كما قلنا سابقاً مفصَّلةٌ في ملحقٍ في آخر البحث. ونُوجِّه اهتمامَنا خاصةً إلى رحَلاته في المغرب التي نترجم نصوصها في الجزء الثالث، فنضَعُها في سياقها المحدَّد ونذكر مراحلَ حركاتِه ونعرِّفُ الأماكن التي زارها خلال تنقُّلاتِهِ. ثم نقارن بين الرِّحلتين لِنُمَيِّزَ خصائصَها المشتركة واختلافاتِها، ونُبَرِّرَ فرضيةَ تدخُّلِ الوزير الأندلسي المنفي بشكل مباشر في السياسة المغربية كدافع من دوافع حركاته في سبيل إعادة توحيد الغرب الإسلامي.

نُنهي الجزء الثاني بإجابتنا على السؤال الذي يتمحور حولَهُ بحثُنا: في أي نوعٍ أدبيٍ نُدرجُ كتاب "نُفاضة الجراب" وماذا عنى به مؤلِّفُهُ عند تصنيفِهِ؟ فنبدأ بدراسة خصوصيّتِه بالمقارنة بينَه وبين رحلات أخرى، أندلسيّة ومغربيّة وتونسيّة، تشاركُهُ في بعض خصائصِهِ، وذلك انطلاقاً من أنَّ مؤلِّفَها كان يرجعُ إليه في مؤلَّفاتٍ أخرى مُسَمّياً إيّاهُ « كتاب الرحلة »، فنجد أنّ اعتبارَ "نُفاضة الجراب" رحلةً فحسب غيرُ كافٍ لإدراك خاصيَّتِه. لذلك نُفضِّلُ تصنيفَهُ ضِمن مجموعة نصوص معاصرة قام مؤلّفوها من خلالها بالتحدُّث عن أنفسِهِم، وعند ذاك نرى أنّهُ يندرج ضِمن ظاهرةٍ أدبية قام فيها الأدباء بتجاوز حدود الأنواع الأدبية المتداوَلة في ذلك الحين للتعبير عمّا في دخائلِهِم.

في هذه النقطة وجدنا أنه من الضَّروري تحديدَ موقفِنا داخل النقد النصّي حول إمكانية معرفة ذاتية المؤلف في أيّ نصٍّ من النصوص، فهي إمكانيةٌ انتقدها أصحابُ نظرية ما بعد البُنيوية. ونستنتج بعد خوضنا في هذا المجال أنّ المعلوماتِ التي يستخرجُها أيُّ قارئٍ من خطابٍ ما تعود إلى تفسيره الشخصيّ لذلك الخطاب داخل سياقٍ معيَّن، الأمر الذي يقودنا إلى تعدُّدِ إمكانيات فَهْم الخطاب أو النص والحاجة إلى الاتفاق الجماعي حول هذه الإمكانيات على أساس حِجَجٍ منطقية. بهذه الطريقة نستطيع أن نسلِّطَ

نظرتَنا الخاصة على المؤلف في إطار سياق سياسيٍّ واجتماعيٍّ وثقافيٍّ نَصوغُه لتحليل استراتيجياتِه النصّية، فهو يكمن في استخدامه الخاص للغة، مقصوداً كان أم غيرَ مقصود، رَغْمَ البُعدِ الزمني بين الكاتب والقارئ. كما أنّ إمكانياتِ فَهْم النص المتعددة بتعدُّدِ السياقات لا تلغي بعضَها بعضاً بل تتكامل فيما بينَها لتكوينِ مفهوم له يكون في تحوُّلٍ مُستمرّ.

وبعد هذا الاستطراد نعود إلى "نُفاضة الجراب" لنجد الكتّاب جُزءاً من ترجمة ابن الخطيب الشخصية وذلك بإدراجِه ضمن مجموعة من مؤلفاته ذات الطابع الذاتي. ويجب أن نُشيرَ هنا إلى أننا عندما نتكلم عن الترجَمة الذاتية فإننا نقصد بذلك المفهوم الحديث لهذا النوع الأدبي فهو نوعٌ لم يكن موجوداً في الثقافة المتداوَلة في عصر المؤلف ولا في تراثه، أي في التراث العربي الأندلسي. ولذلك فنحن لا نقصد بهذا المفهوم نصاً معيناً من تأليفه أو تأليف أبناء عصره يريدون به التحدُّثَ عن أنفسِهم، ولا نُسمّي هذه النصوص « تراجِمَ ذاتيّة » بل « مُدوَّناتٍ معبرةً عن الذات » من حيثُ أنّ مؤلِّفيها استخدموا الأنواع الأدبية التي كانت متداوَلةً في تراثِهم للتكلُّم عن أنفسهم بطرقٍ متعدِّدة. ثمّ نتعمق في كتّاب "نُفاضة الجراب" لنجدَ ابنَ الخطيب يعبّرُ بين طيّاتِه عن نفسه بشكل متناثر هنا وهناك، بين النصوص التاريخية والأدبية التي تُكوِّنُه. ونخرج بعدها من الكتّاب لنتعرَّضَ إلى إنتاج عصره الأندلسيّ والمغربي والقَشتالي والأراغوني، فنرى أنّ حالة الأزْمة الشاملة لهذا العصر والفِتن التي طرأت على هذه البلدان قد أثرت بعمق في كثير من الأدباء الذين عاصروا كاتبَنا، وكوَّنَت سياقَهُم الخاص الذي أدّى بهم إلى التعبير عن أنفسهم بأسلوب يكاد يدخل في مفهومنا الحديث للتعبير عن الذات. وعندما ينعكس سياقُ الأزمة على "نُفاضة الجراب" عن طريق تجرِبة المنفى نجد أنّ الكتّابَ يخرج من إطار الرحلة كنوعٍ

أدبيٍّ موحَّد ليُصْبحَ كتّاباً فريداً من نوعه من حيث أنّه يعبّر عنِ التجرِبة العصيبة التي مرّت بها هذه الشخصية البارزة. ولكننا في نهاية المطاف موقِنونَ أنّ هذه ليست إلا قراءَتَنا الخاصة لهذا النص، وهي متوافقة مع قراءات أخرى سابقة لنا وممكنة في المستقبل.

في الجزء الثالث والأخير من هذا البحث سيجد القارئ الترجمة الإسبانية لِنصَّيْ الرحلتين اللتين قام بهما المؤلف بين أقاليم المغرب المريني، حيث نُبيِّن في الحواشي المسائلَ اللغوية والنحوية والبلاغية والعَروضية ، ونوردُ تصحيحاتِ النصوص المحقَّقة اعتماداً على المخطوطات، كما أننا نقدِّم نصوص الهوامش الموجودة في إحدى هذه المخطوطات مع ترجمتِها، إضافةً إلى التعريف بالأعلام والقبائل المذكورة. وفي أولى هاتين الرحلتين زار ابن الخطيب جنوب المغرب، من مراكش إلى سلا متنقلاً بين المراحل التي تفصلهما عن طريق ساحل المحيط الأطلسي، أمّا في الثانية فيقطع المسافة بين فاس ومراكش مجتازاً إقليم تامسنا، غير أنه أُضطُرَّ إلى العودة إلى سلا دون الوصول إلى غايتِه.

ونُنهي البحثَ بتحليلٍ للنصوص المترجمة نطبِّق فيه النظريةَ النقدية التي شرحناها سابقاً، معتمدين في ذلك على سياق الخطاب وعلى الاستراتيجيات النصية التي وجدناها فيه. فنبدأ بتحديد الهُوِيَّة التي انطلق بها العالِم الغرناطيّ المنفي من مقر الملك المريني للتنقُّل بين قبائله ومُدُنِه الثانوية بعيداً عمّا أَلِفَهُ في وطنِه الأندلسي، وذلك لِفَهْم بعضِ المواقف والآراء التي ذكرها في رحلاته. ثم نقوم بعرض الصورة التي يقدّمها عن المغرب في أوصافه وتعليقاته، من الجانب المدني في وصفِه للعُمران والخراب، ومن الجانب القَبلي الذي يتطرّق إليه بشكل متناثر. نتصدّى كذلك للنظرة التي سلَّطها ابن الخطيب على الأشخاص الذين التقى بهم خلال تجولاته من أهل السُّلطة والعلم. وفي نهاية المطاف نجد أنفسَنا أمامَ عرضٍ شامل لوضع المغرب المريني في هذه الفترة العصيبة من تاريخه، فنظرة العالم

الأندلسي التحليلية تجعلنا نتأمل الانعكاسَ الفعلي لأزمة أواسط القرن الثامن السياسية على مجتمع المغرب الأقصى. وقد رأينا أنه من المناسب التعرّضَ أيضاً إلى خصائصَ أسلوب ابن الخطيب النثري، حيث أننا تمكّنّا خلال قراءاتنا وترجماتنا من التعمّق فيه، فنضعه في سياق إنتاج معاصريه ونجد أنّ الدارسين قد انقسموا بين مَن رآه جامداً ومَن دافع عن حيويتِه، ونحن بدورنا بعد تيقُّنِنا بأنفسنا من هذه الحيوية نقدّم بعض الأمثلة من النصوص التي تعمّقنا في قراءتها.

تتمحور استنتاجاتنا العامة في هذا البحث حول ثلاثِ نِقاط أساسية قد تعرّضنا لاثنتين منها فيما سبق: أوَّلها يدور حول دوافع رحلات ابن الخطيب في المغرب، ويتعلّق ثانيها بخصوصيات كتاب "نُفاضة الجراب"، ويخُصُّ ثالثُها العلامات التي أدّت بنا إلى الدفاع عمّا سميناه « التجديد الخطيبي » نسبة إلى الوزير والعالم الأندلسي.

بالنسبة لدوافع الرحلتين، فقد أشرنا، كما أشار غيرُنا، إلى أنّ اتصال ابن الخطيب خلالهما بأبرز شيوخ القبائل العربية والبربرية التي كانت تلعب دوراً حاسماً في سياسة الدولة المرينية يدعَمُ فرضية تدخُّلِه في هذه السياسة في سبيل محاولة توحيد الغرب الإسلامي، خاصة وقد أُتُّهِمَ في نهاية حياته بترغيب السلطان المريني في الزحف على الأندلس وضمِّها إلى دولته. وإن تدخُّلَهُ في السياسة المغربية يظهر دون شك، مع أن الوزير لا يصرّح بذلك، في ملامِحَ من رحلته الثانية التي يقوم بها في منتصف الشتاء والفتنة المغربية ليتَّصِلَ بشيخ الخلط قبل دخول هذا الأخير في مجابهة ضدَّ قبائلَ محالفة للمطالبين بالعرش.

أما عن خصوصيات "نُفاضة الجراب"، وهو الكتاب الذي عبّر فيه لسان الدين بن الخطيب عن تجربة المنفى والاغتراب كما يبدو من عنوانه ومن مضامينه، فقد تكلمنا سابقاً

عن سبب اعتبارنا له كمدوِّنة معبِّرة عن الذات، ليس فقط من خلال تعبيراته الشخصية التي تُبدي طابعاً حديثاً غيرَ مألوفٍ في العصور الوسطى، وقد شاركه في ذلك بعض معاصريه، بل بنوعية الكتّاب الخاصة به وباختياره لما يتضمَّنُه من رسائلَ وأشعارٍ ومعلوماتٍ دون أخرى.

وانطلاقاً من هذه الاستنتاجات وأخرى ثانوية توصلنا إليها، بالإضافة إلى بعض آراء الدارسين لشخصية وتراث لسان الدين ابن الخطيب، تيَقَّنا من أن العلامة الأندلسي يعكِسُ في كلِّ مظاهرَ حياته وعمله التي تعرّفنا عليها حتّى وقتنا الحالي محاولةَ تجديدٍ شاملٍ تهدُف إلى المحافظة على الدولة الإسلامية في شِبه جزيرة إيبيريا بالاعتماد على قوّة المغرب القبلية القتالية وبعضِ مميّزاتِه الثقافية والسياسية.

إنّ التجديد الخطيبي الذي ندافع عنه في نهاية بحثِنا يتمثّلُ في جوانبَ متعددةٍ من انتاجه التاريخيّ والأدبيّ والعلميّ، ويبدو أنه ظهر استجابةً إلى الضعف الذي كان يتخلَّل الدولةَ الأندلسية وتمسُّكِ بني نصر باستقلالهم عن سياسة المغرب المريني رَغْمَ ضغطِ مملكة قَشتالة وتحكُّمِها بأمور مُلكِهِم.

وقد أبدى ابن الخطيب في منهجه التاريخيّ بوادرَ المنهج التجريبيّ الذي تميّز به الفكرُ الغربيّ الحديث كما نجده عند ابن خلدون، وذلك بالإشارة إلى كيفيّة انعكاس الأحداث السياسية على الأوضاع الاجتماعية والثقافية و بالاعتماد على المصادر والوثائق الرسمية والشهود، بالإضافة إلى تجربته الشخصية وآرائه. وهذه بالفعل سِمةٌ من سِماتِ كتّابِه "نُفاضة الجراب"، لا كمنهجية أساسية مقصودةٍ في الكتّاب بل كبوادرَ متناثرة، وبعضُ هذه البوادر ليست موجودة في كتّابته التاريخية فحسب بل في رحلاته أيضاً. وهذا المنهج التجريبي نجده كذلك في أعماله الطِبّية وخاصةً في نظرية العَدوى كسببٍ لانتشار مرض

الطاعون الذي قاساهُ أبناءُ عصره، والتي اعتمد للوصول إليها على التجربة الإنسانية مع أنّ أغلبَ معاصريه كانوا يؤمنون بأن الطاعون كان عِقاباً إلهياً.

أمّا في الجانب السياسي فيبدو أن الوزير الغرناطي قد وجَّهَ ولاءَهُ نحو الدولة الإسلامية، بمعنى أنّ الوَلاءَ الذي كان يدين به لملوك بني نصر كان قابلاً للانتقال إلى غيرِهم وإنْ لم يكونوا من أصلٍ عربيّ، وذلك في سبيل دوام الإسلام على ضَفَّتي المضيق. وقد كان ابن الخطيب متشائماً من الحياة السياسية في عصره فاستبداد السلطة جعل في تقرُّبِ العلماء منها مجازفةً وأخطار. كما يبدو أنّه سعى إلى تنفيذ خطةٍ إصلاحيّة عامة لسياسة الدولة النصرية الداخلية والخارجية تشمُل العدالة والدفاع العسكري والجباية والتنظيم الإداري والمجتمع والتعليم والدين، وما إلى ذلك.

وفي هذا التجديد يندمج أيضاً أسلوبه النثري فقد أبدى ابن الخطيب في بعض كتاباته انتقالاً من النثر المقيَّد إلى المرسَل، مع أنّ المقيَّد كان الأكثَر شُيوعاً في إنتاجِه وإنتاج أغلب أدباءِ عصرِه، وهو على رأسِهم، لدرجةِ أنّه شكَّل اتجاهاً أدبياً خاصاً به في النثر العربي. كما أنّ كتابَه في التصوّف الذي أدّى به إلى الموت يتضمّن بدوره أفكاراً لم يكن يتداولها أو يكتب عنها مَن عاصرَهُ من العلماء والفقهاء والمتصوفين، حيث دافع فيه عن مشروعية إقصاء العقل وتعويضه بالوجدان.

يتبيّن مما سبق أنّ التجديد الخطيبي الذي أراد به العلامة إصلاح وضعِ الأندلس بإعادة توحيد العُدوتَين هو، إلا حدٍّ ما، إصلاحٌ شامل للغرب الإسلامي ليكونَ به أكثرَ انسجاماً مع النهضة الأوروبية المسيحية التي بدت بوادرُها في عصره، غير أنّ أعداءه تمكنّوا منه خلال منفاه الثاني والأخير لتتّسعَ بعد قتلِه الفجوةُ بين ضَفَّتي المضيق وتُؤدّيَ في نهاية القرن التالي إلى سقوط غرناطة وضَعْفِ المغرب.

هناك مسألة أخيرة يتوجب الإشارة إليها، وهي متعلّقة بالنظرة التي سلَّطها الباحثون الذين درسوا شخصية لسان الدين في القرن الماضي، سواءً كانوا عرباً أم غربيين. وينقسم هؤلاء بين مَن يرى تناقضاً في معظم تصرفاته وخيانةً لأهل وطنه بتحالفه مع أهل مِلَّتِهِ من المغرب، وبين مَن يُكذِّبُ هذه الاتهامات. وقد وجدنا أنفسنا ضمن المجموعة الثانية وتساءلنا عن معنى هذه الاتهامات في نظرتنا المعاصرة إلى الماضي الأندلسي، فرأينا أنها تنبُعُ من الحكم على الماضي دون اعتبار المسافة الزمنية والتجربة الإنسانية التي تُبعِدُنا عنه. فأمّا تناقضاته فأبرزها اعتبارُ زُهدِه مزيّفاً لتمسك ابن الخطيب بالأمور الدنيوية، ويبدو أنّ مَن اتّهمَهُ بذلك قد افترض أنّ ما نراه متناقضاً اليوم كان كذلك منذ ستّةِ قرون، وهو إن كان كذلك فأين نحن مِن تجاوز تناقضاتِنا الحالية. وأياً كانتِ الحالُ فنحن لا نجدُ مانعاً في أن يصبو أديبُنا ومفكّرنا الأندلسي إلى تجاوز الحياة المعنوية التي فقد الأمل بتحسين أحوالها، بينما لا يرتضي لنفسه في الوقت ذاته التسليمَ بالأمر الواقع ويضطَرُّ إلى توفير الدعم المادي حفاظاً على كرامته وكرامة أهله.

وأمّا بالنسبة لتُهمَةِ الخيانة فلا ينبغي لنا أن نحكمَ في هذا المجال على أساس مفهوم الدولة الحالي فالحدود السياسية والثقافية بين الأندلس والمغرب في ذلك القرن لم تكن كالحدود الحالية بين إسبانيا والمغرب، خاصةً وأنّ أمَّةَ الإسلام كانت تجمع بينهما وإن لم تكن الاتفاقات السياسية توافق هذا التوحُّد الديني. فكان ولاء الوزير الأندلسي، كما أشرنا سابقاً، يعود إلى الأمّة في سبيل توحيد كيانها السياسي بين الضّفَّتين. فلِلأمر إذاً جانبٌ آخرْ يتعلق بمفهوم الولاء عند ابن الخطيب، وابتعاد بني نصر من المغرب رَغْمَ ضَعْفِ دولتهم قد يكون خيانةً أيضاً، إلا إذا أردنا أن ندافع عن شرعية تاريخية للتباعد بين جنوب أوروبا وشمال إفريقية. وعلى أيّة حال فإن شخصية لسان الدين وتراثَه الفكري تستحقّان

نظرةً أكثرَ عُمقاً من هذه التُهَمِ السطحية التي تحول دون رؤية نضاله في سبيل التفاهم بين العُدوتَين.

وإنّ هذا النضال التجديدي الذي لم يترسَّخ في وقته لَيستَحِقُّ إعادةَ النظر في وقتنا الحالي، بدءاً بتنصيب هذا المفكر الأندلسي وغيرِهِ من أعلام الفكر والأدب الأندلسيّ إلى جانب ثيربانتس في التراث الثقافي الإسباني.

كتب في غرناطة في 14 حزيران من سنة 2016